لمحات من الواقع الثقافي للجواري في الغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين

Glimpses of the cultural reality of slave girls in the Islamic West from the conquest to the fall of the Almohade state.

نوارة شرقي♦
جامعة ابن خلدون-تيارت، nouarahis04 @gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/06/04 تاريخ القبول: 2023/06/24 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية: شغل موضوع الجواري والإماء حيزا معتبرا من اهتمامات الكتاب والأدباء والمؤرخين والمهتمين، وانصب جل نظرهم وبحثهم للدور التقليدي للجارية في الإمتاع والمؤانسة، وإرضاء نزوات السيد، لكن الزاوية الأخرى التي تبدو أكثر إشراقا ونفعا وهي الإسهام الثقافي والأدبي، لم تنل حقّها في حقل الدراسات التاريخية على الأقل، ولعلّ شحّ المادة المتعلقة بهذا الموضوع يدعونا لدراسة أكثر امتداد وأطول فترة، تحاول هذه الدراسة نحت بعض المادة العلمية التي تناثرت في ثنايا المصادر المتاحة بين فترة الفتح الإسلامي ثم قيام الدول حتى سقوط الدولة الموحدية في مشارف نهاية القرن السابع للهجرة للوقوف على اسهامات المرأة المملوكة من مختلف المناحي العلمية والأدبية والثقافية، وكيف صارت مطية عند السادة، وكيف استغلت المكانة التي اتيحت لها حتى تتمكن من رصد المكانة التي بوأتها لنفسها، لتترك رصيدا معتبرا في مجالات عدة، أعاد لها الإعتبار، وساهم في حد ما إلى درأ التوصيف التقليدي الذي حصر مفهوم الجارية في الأدوار السابقة، وسمح لها يتقلد أدوار أكثر عمقا وإفادة .

الكلمات المفتاحية: الجواري؛ الغرب الإسلامي؛ الثقافة؛ الفتح؛ دولة الموحدين.

Abstract: The topic of slave girls and maidsoccoupies a significantspaceintheinterests of writersandhistorians.andmost of their attention isfocused on the traditionalrole of the slave girlsinentertainmentandcompanionship.however.theother aspect. Which seems morepromising.is the cultural literary contrbution of slave girls which hasnot received its fair share in the field of historical studies.atleast.perhaps the scarcity of material related to this topic calls for amore extensive and longer period of study .this study attemps toexplore some scientific material is scattered between the period ofthe islamic conquest and the establishment of

♦ المؤلف المرسل

states .until the fallof the almohad state on the verge of the end of the seventh centuryof the hijricalender.

conquest ؛ islamic west؛culture؛**keywords** :slave girls .almohade state.؛

مقدمة: شهدت حواضر الغرب الإسلامي نهضه علمية منقطعة النظير، وقد ضاهت هذه الحواضر نظيراتها المشرقية، بل وتفوقت عليهم أحيانا في العطاء العلمي والادبي، ولهذا أصبحت هذه الحواضر مقصدا للعلماء من كل حدب وصوب، ولم تكن هذه النهضة من فراغ، بل جاءت نتيجة عمل دؤوب قام به أهل البلاد من علماء وأدباء وفقهاء، الرجال منهم والنساء.

أما النساء فلم تقتصر مساهمتهن على المجال الثقافي والعلمي على الحرائر منهن فقط، إذ نجد عددا من الجواري اللائي كان لهن عطاء ثقافي خلدته مصنفات المؤرخين، على الرغم من أن الحديث عن الجواري يجرنا للحديث عن مجالس الأنس، وما كان يحدث فيها من خلاعة ومجون، وتعاطي للمسكرات، وممارسات عديدة للمنكرات ومن هذا المنطلق تتبادر الإشكالية الرئيسية للبحث ومفادها:

هل تعدى الدور التقليدي للجواري ممثلا في امتاع السيد وإرضائه إلى أدوار أخرى ثقافية وأدبية؟ ما الأسباب الذاتية والموضوعية التي ساهمت في ابراز الادوار الثقافية للجواري بالغرب الاسلامي عموما في فترة ما بعد الفتوحات وقيام دول المغرب الاسلامي؟

بداية نحاول اتباع المنهج الوصفي المناسب للبحث لاستقصاء التعاريف اللغوية والاصطلاحية لمعنى الجواري وكذا تتبع و رصد اسهامات الجواري في الحقل الثقافي .

التعريف اللغوي والاصطلاحي للجواري:

اهتمت المعاجم اللغوية والقواميس العربية في وضع تعريفات وشروحات دقيقة لمسميات الجواري والإماء، وذلك للحد من الخلط واللبس الذي يلحق بوظائفهن ووضعيتهن في المجتمع .

أ/ التعريف اللغوي: الجواري في اللغة جمع، ومفرده جارية، والجارية الشمس، وَقَوله تَعَالَى: فَلَا أقسم بالخُنَّس الْجَوَارِي الكُنَّس[1] ويَعْنِي النُّجُوم. وَجَرت السَّفِينَة جَرْيا:

1 سورة التكوير، الآية 15.

كَذَلِك. ويقال للجارية أمة والأمة: والجمع إماء، وآم وأموان، ويقال: تأمّت المرأة أي أمتلكت، وتأمى الرجل أي اتخذ أمة[1]

ويقول ابن منظور الجارية الفتية من النساء، بيّنة الجراية[2] وما أورده اللغوي ابن منظور في هذا الموضوع لا صلة له بالعبودية إطلاقا، لأنها لفظة تُطلق على الحرة والمملوكة، وهي دلالة على التأنيث عند جهل اسم الانثى، وبالتالي تطلق على الأنثى الشابة الناضجة[3]، والفتية من النساء.

والجارية في اللغة كذلك هي الفتاة التي تباع وتشترى في سوق النخاسين[4]

ب/ التعريف الاصطلاحي: تعتبر من أكثر التعابير استعمالا في المصادر، ويغطي عروقا وأجناسا متعددة، فالجارية في الادبيات التاريخية هي الأنثى التي فقدت حريتها، وسخرت لتلبية حاجات مالكيها وسادتها[5]

أما الجارية في الإسلام الحنيف فهي كلّ امرأة أخذت أسيرة في الحرب شريطة أن تكون غير مسلمة، ويباح لمالكها أن يعاشرها معاشرة الأزواج، والجواري ثلاثة أصناف: جواري المتعة — جواري الخدمة — أمهات الأولاد[6]

أما مسمياتهم فهي كثيرة، منها الأمة وتعني غالبا هنا جواري الخدمة[7] ونجد كذلك الحظية، وهي الجارية التي تبرز وتتميز عن بقية الجواري وذلك لجمالها أو صنعتها[8] أو لصنعة جميلة ميزتها فكانت مقربة للخليفة وتأخذ عنده مكانة خاصة ومقربة جدا، وغالبا

1 عبد الله التجاني، متعة العروس ومتعة النفوس، تح جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، 1992، ص158.

2 ابن منظور، لسان العرب، المطبعة الأميرية، مصر، بولاق، 1989، ومادة جري و، ص455.

3 جهاد كاظم العكيلي، أفراح ذياب صالح، الجواري في التاريخ ودورها في الحياة الأدبية والثقافية، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، العراق، ع37، 2018م، ص229.

4 لويس معلوف، المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، ص555.

5 سولاف فيض الله، ، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ط1، 2013، ص33.

6 حسن يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الافصاح في فقه اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1929، ص16.

7 محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس ودورها في الأدب العربي، ص95.

8 ابن حزم الأندلسي، طوق الحماة في الإلفة والآلاف، ص33.

يتخذ الخلفاء منهن زوجات لهم، وفيما بعد يصبحن أمهات أولاد، مثل ما حدث مع الأمير المرابطي علي بن تاشفين وجاريته قمر[1] والخليفة المأمون الموحدي وجاريته حبابة[2]

ونجد أيضا مصطلح السرية والتي تعتبر نصف معتقة، لأن تحويلهم إلى أمهات أولاد يسقط قيمتهن التجارية، وتمنح لهن الحرية، ويصبحن بمثابة الزوجات لأسيادهن[3]

أما القهرمانة فهي نوع من الجواري اللائي عرفهن المجتمع في المشرق الإسلامي عامة[4] أما القينة فهي الجارية المغنية[5] وقال الجاحظ عنهن : إن القينة لا تسلم من الفتنة ولا تكون عفيفة لأنها تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله، من لهو الحديث وصنوف اللعب[6] ويؤكد قوله هذا قول آخر : ما خلقت الأغاني إلا للغواني[7].

ونجد كذلك الجواري الغلاميات، وهو لون من ألوان الجواري ظهرن في العصر العباسي ويقصد بهن الجواري من الفتيات الصغار اللائي لم تتجاوز أعمارهن العشرين سنة[8].

ونافلة القول أن الجواري كنّ منذ القدم مقصد الرجال حاكمين ومحكومين في مختلف الحضارات والامصار والعصور، نظرا لعدة اعتبارات اختصرها الجاحظ حين قال: من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر.[9]

---

1 ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983، ص245.

2 Michel abitbol ,**histoire du maroc** , editionpinin , 2009, p113.

3 زينب محمد حامد، اوضاع العبيد المعتقين في العصر الوسيط بالغرب الإسلامي، مجلة البحوث التاريخية، مج03، ع01، 2019، ص55.

4 سولاف فيض الله حسن، مرجع سابق، ص 34.

5 ابن منظور، مصدر سابق، ج13، ص351.

6 الجاحظ، مصدر سابق، ص170.

7 التيفاشي أبي أحمد بن يوسف، متعة الإسماع في علم السماع، تح رشيد السلامي، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، 2019، ص179.

8 ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص200.

9 الجاحظ، المحاسن والأضداد، تح فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، 1969، ص 230.

يقول ابن حزم الأندلسي: تربيت في حجورهن ويقصد الجواري، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب، وهن علمنني القرآن، ورويننني الكثير من الأشعار، ودربنني منذ أول فهمي[1]

وقال عنهن ويقصد الحرائر منهن والإماء و الكثير من المؤرخين أنهن لسن أهلا لشيء إلا للخدمة والنسل، وقال آخرون أنه من الواجب على الرجال عدم الأخذ برأيهن في أي أمر، لأن رأيهن غير صائب غالبا، وبين هذا التضارب الصارخ نجد أنهم قد اتفقوا كلهم في نظرتهم الدونية للمرأة الحرة، فما بالك بنظرتهم للجواري اللائي كانت نظرة الكثير اليهن في العصر الوسيط فيها الكثير من المهانة والإحتقار، لارتباط ذكرهن بمجالس اللهو وبكونهن وسائط للمتعة لا غير، ورغم ما قيل الا أننا وجدنا في مصنفات هؤلاء الطاعنين في الجواري الواصفين لهن أنهن السبب في انهيار الاخلاق، إشارات جمّة حول إسهامات الجواري في إثراء الحياة الفكرية والثقافية خاصة.

2/ واقع النخاس مع الجواري

ولأن النخاس هو المكلف بكل شؤون الجواري منذ شرائهن إلى غاية بيعهن، ومنها الإشراف على تعليمهن وتثقيفهن، ولذلك وجب علينا التعريف بالنخاس وبما يقوم به تجاه هذه الفئة.

التعريف بالنخاس:

هي تسمية أطلقت على تجار الرقيق، كما سميت تجارتها بالنخاسة، والأصل في النخاسة كما ورد في لسان العرب تاجر الدواب يسمى نخاسا، ومنه شملت التسمية إلى تجار الرقيق، ويعرف المتكلف بهذه الحرفة كذلك بالدلال والسمسار[2].

ويجب على النخاس أن يكون عارفا بأسرار مهنته، ولابد أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط، وعلى رأسها أن يكون على جانب كبير من الثقة والعدل والعفة، لأنه يتسلم جواري الناس وربما اضطرتهن الظروف للبقاء في منزله أياما، فيختلي بهن[3]

لذلك فهذه المهمة من المفروض ألا يُكلف بها إلا الثقاة، كما يجب على النخاس أن يكون على دراية ببعض المعارف الطبية، وكذا معرفة العلل والأمراض التي يمكن أن يصاب بها قينه، حتى يمكنه الاحتياط لها، وحتى يتسنى له تحديد قيمتها في البيع

---

1 ابن حزم أبو محمد بن علي بن سعيد الأندلسي ت456ه/1063م، طوق الحمامة في الإلفة والآلاف، ضبط نصّه وحرر هوامشه الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط1، 1405ه، 1985م، ص266.

2 ابن منظور، لسان العرب، ص455.

3 ابن الأخوة القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تح محمد محمود، صديق احمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص216.

والشراء، والتمييز بين الصحيح والسقيم من الرقيق على الصعيدين الجسدي والنفسي[1] إضافة إلى المعارف الصيدلية التي تمكنه من صناعة المساحيق والعقاقير، التي يتم استعمالها في علاج بعض العلل، أو إخفائها على المشترين.[2]

وقد أمدتنا المصادر بكثير من الشواهد والأدلة التي أثبتت براعة النخاس في هذه الفنون، غير أنهم استخدموها للغش والتدليس أكثر من استخدامها لمصلحة الزبون[3] ولما يقوم به النخاس من أعمال منافية للشرع والعرف، تكونت نظرة اجمع عليها العام والخاص علىدناءة وخبث النخاسين عموما، يقول الجاحظ في هذا الصدد: "وكما أن أصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من جنس شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة، فعلمنا بذلك أنّ خلقه في هذه الصناعات ...حين صاروا من بين جميع الناس كذلك[4].

أدوار الجارية بالغرب الإسلامي:

الدور التقليدي: تغنى الناس بالمغنيات من القيان والجواري الذين تفننوا في الرقص والغناء، حتى قال عنهم أبو عثمان السرقسطي الأندلسي في أبيات بقي الناس يرددونها في كل ملهى ومغنى:

لا عيش إلا في المُدام وقينة تشدو على وتر فصيح بالغ
تُعنى بتقدير الزمان ومسحه فيجيء بين مملأ ومثفرغ
وكانما نغماتها في لفظها ذهب أسيل على لجين مُفرغ
واذا نظرت غلى محاسن وجهها ناديت يا قمر السما لا تبزُغِ[5]

كان للجواري ذوات المكانة الاجتماعية -حتى من غير زوجات الخلفاء والأمراء-نصيب من المهام والأدوار، فكنّ يستخدمن الجواري ذوات الثقافة العالية منهن في الأعمال الإدارية والترفيهية، ويتخذنهن لمهمات جسيمة مثل الحراسة الأمنية؛ فقد ذكر الحُصْري القيرواني ت 453هـ/1062م و -في 'جمع الجواهر في المُلَح والنوادر[6] من أن

1 ابن الأخوة، مصدر سابق، ص239.

2 السقطي، مصدر سابق، ص 47.

3 السموأل المغربي، نزهة الأصحاب في معاشرة الأحباب، تح أحمد فريد المزيدي، دار المعارف العربية، القاهرة، 2007،

4 الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1، ص52.

5 أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ت، ص192.

6 أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر، حققه وضبطه علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1953، ص 198.

"زينة بنت [الوزير] المهلبي ت بعد 362هـ/973م بلغت بها الحال إلى أن اتخذت الجواري الأتراك حُجَّابًا وحُرّاسا وفي زِيّ الرجال على ما جرى به رسم السلطان، وكان لها كُتّاب من النساء مثل سلمى النوبختية وعائشة بنت نصر القسوري و غيرهما.

الأسباب والعوامل التي ساعدت الجواري على التعلم والإبداع وأدوار غير تقليدية:

اختلفت العوامل والأسباب التي ساعدت الجواري على التعلمّ واتقان شتى الفنون والمعارف، وحتى الإبداع فيها فيما بعد.

أ/ الربح المادي الوفير للنخاس:

لقد كانت الجواري في الغرب الاسلامي سلعة رائجة، وخاصة المثقفات منهن، إذ كان الطلب عليهن كبيرا [1] وهو ما دفع بالنخاسين إلى بذل الأموال الطائلة لتعليمهن وتثقيفهن، وهذا لكسب أموال أكثر، ففي تلك الفترة عمل النخاسون على جلب الفتيات الصغيرات في السنّ إلى ديار الإسلام، بعد شرائهن ولأن الصغيرات أقرب للتعلم والحفظ، فقد كانوا يحملنهن إلى المشرق، وهناك يتعلمن ويتدربن على إجادة شتى العلوم والفنون، كما أنهن ينشأن نشأة عربية.[2]

ومن أشهر من نقلت للمشرق للتعلم كانت قمر البشنكسية جارية الأمير عبد الرحمن بن الحكم[3] لتتعلم الغناء، فعادت أديبة حسنة الخط، راوية للشعر حاذقة في الأخبار وضروب الأدب.

ومن تجار القيق في تلك الفترة نذكر ابن الكتاني المتطبب[4] والذي نال ثراء فاحشا من تجارة الجواري المثقفات المبدعات والذي طالما تفاخر هذا الطبيب النخاس بتعليمهن، ومن ذلك قوله: ...وفي ملكي الآن أربع روميات، كنّ بالامس جاهلات وهن الآن عالمات حكيمات فلسفيات هنديات موسيقيات اسطرلابيات نحويات عروضيات أديبات خطاطات، تدل على ذلك لمن جهل الدواوين الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه، وغير ذلك من فنونه، وعلوم العرب من الأنواء والأعاريض والأنحاء، وكتب المنطق

---

1 سلمى سليمان علي، المرأة في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، 400-484هـ، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2006، ص129.

2 سليمان حريتاني، الجواري والقيان وظاهرة انتشار أندية ومنازل المقينين في المجتمع العربي، دار الحصاد، دمشق، 1997، ص58.

3 المقري و أحمد بن محمد التلمساني و، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص759.

4 ابن الكتاني المتطبب: هو ابو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بالكتاني، أخذ العلوم الطبية عن عمه، وخدم عند المنصور محمد بن ابي عامر وابنه المظفر، ثم انتقل الى سرقسطة، واستوطنها، كان بصيرا بالطب وعلم المنطق والنجوم والفلسفة وغيرها، توفي سنة 420هـ /1029 عن عمر ناهز الثمانين.

والهندسة وسائر أنواع الفلسفة...وهن يتعاطين إعراب كلّ ما ينسخنه وما يستنبطنه فهما لمعانيه، ولكثرة تكرارهن فيه[1] وهذا الاهتمام بتعليم الجواري يؤكد أن مهنة تنشئة الجواري وتعليمهن كانت من أبواب الكسب الواسعة التي نال أصحابها جاها عريضا.

ب/ دعوة الفقهاء الحكام:

من أبرز الفقهاء الذين نادوا بضرورة تعليم النساء وتثقيفهن سواء من الحرائر أو المملوكات أمور دينهم ودنياهم نذكر ابن حزم الظاهري من خلال تحميل الحاكم مسؤولية اجبار الزوج على تعليم زوجته أو مملوكته، وأوصى طلبة العلم بالنقل عن النساء من المتعلمات سواء كنّ من الحرائر أو الجواري، أما بالنسبة للحكام فقد عمل الكثير منهم ممن تعاقب على حكم الغرب الاسلامي من العدوتين، فهذا عبد المؤمن بن علي الكومي التلمساني الخليفة الأول الموحدي يفرض الزامية التعليم على الجميع، الرجال منهم والنساء، الأحرار كما العبيد[2] وهذا الامر كان له الدور الإيجابي في تثقيف الجواري.

ج/ البيئة المناسبة للإبداع:

ان أغلب الجواري المثقفات عشن في بيوت علم وثقافة وفكر، فنهلن منها، كل جارية حسب ميولها وطاقتها وموهبتها، أو حسب رغبة مالكها ومولاها[3]، كما لا نغفل دور البيئة الأندلسية المتطورة والسمحة الباعثة في النفوس الغبطة والارتياح، ر ولا نغفل كذلك تلك النهضة التي شملت حواضر الأندلس كقرطبة وغرناطة واشبيلية، ولا ننسى الدور المهم الذي لعبته مدرسة زرياب بالأندلس، والتي كان الهدف منها تكوين الجواري وتعليمهن، وكانت تلك أول مدرسة لتعليم الموسيقى وأساليبها وقواعدها بالغرب

1 ابن حزم الظاهري عالم موسوعي كان من أكثر العلماء تأليفا له مجاميع عظيمة بعتبر مجدد المذهب الظاهري، من مؤلفاته الفصل في الملل والاهواء والنحل، المحلى، طوق الحمامة، ...وغيرها، انظر، انخل بلانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية.القاهرة، 2013، صص23.

2 مجهول، مجموع رسائل موحديةمن انشاء كتاب الدولة المومنية، حرره وعلق عليه ليفي بروفنسال، ص.123

3 زرياب: أبو الحسن علي بن نافع وعرف بزرياب لسواد لونه، مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، هو من مواليد العراق سنة 173ه/788م، تلقى تعليمه في مدرسة اسحاق الموصلي، وحصلت بينه وبين معلمه خصومة كانت سببا في ارتحاله نحو الأندلس حيث احتضنه الأمير عبد الرحمن ووفرّ له حياة كريمة، ادخل تحسينات على آلة العود، وساهم في ادخال حضارة بغداد إلى الأندلس، أنظر، هاني أبو الربّ، زرياب وأثره في الحياة الاجتماعية والفنية في الأندلس، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع15، شباط 2009، فلسطين، ص ص 266-271.

الاسلامي وسميت بمدرسة زرياب[1] الموسيقية المنهجية، بالاضافة اليه اشرف عليها وتخرج منها عدد من الجواري المغنيات في الغرب الاسلامي.[2]

د/ دخول الجواري المثقفات المشرقيات الى الأندلس:

لقد كان لجواري المشرق الاسلامي اللائي دخلن الى الأندلس دور كبير في تعليم الجواري، ومن بين هؤلاء نذكر عابدة المدنية[3] وهي جارية سوداء من رقيق المدينة، روت عن مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة، وقيل أنها روت عشرة آلاف حديث، وقد أهديت لحبيب بن الوليد[4] ودخل بها إلى الأندلس.[5]

ونجد أيضا العجفاء التي نالت حظا وافرا من الشهرة بين الجواري الأندلسيات[6] بالإضافة إلى ما قامت به بنات زرياب الذي دخل الاندلس عزلان وهنيدة.

وقد بيّن السرقسطي الموقف الذي يتعرض له الرجل حين يرى "جارية مكتملة الصفات لما أدبها صاحبها قائلا: "تودع القلوب من هواها، ما تشغل به عن سواها، فلقد أودعت قلبي ضراما، وأوسعتني كلفا وغراما، فإنك لو كنت جوارها تسمع حوارها تجاوب مولاها وتراجعه وتساجعه، يقول لها: يا بنت أدبي، لا تنسي حناني وحدبي، ما بنت عن خلدي، ويا سليلة الأقمار، كم لي فيك من إضمار...[7]

هـ/ العامل النفسي:

---

1 زرياب: أبو الحسن علي بن نافع وعرف بزرياب لسواد لونه، مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، هو من مواليد العراق سنة 173هـ/788م، تلقى تعليمه في مدرسة اسحاق الموصلي، وحصلت بينه وبين معلمه خصومة كانت سببا في ارتحاله نحو الأندلس حيث احتضنه الأمير عبد الرحمن ووفرّ له حياة كريمة، ادخل تحسينات على آلة العود، وساهم في ادخال حضارة بغداد إلى الأندلس، أنظر، هاني أبو الربّ، زرياب وأثره في الحياة الاجتماعية والفنية في الأندلس، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع15، شباط 2009، فلسطين، ص ص 266-271.

2 الحمصي عمر عبد الرحمن، الموسيقى العربية تاريخها وعلومها، فنونها وأنواعها، مكتبة الرواد، 1994، ص24.

3 ابن الأبار محمد بن عبد الله بن ابي بكر، التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995.، ج1، ص192.

4 هو أبو سليمان حبيب ويلقب برحون، أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، ابن الأبار، نفسه، ج1، ص228.

5 ابن الأبار، التكملة، ج4، ص240.

6 نفسه، ص241.

7 السرقسطي أبو الطاهر محمد بن يوسف، المقامات اللزومية، تح حسن الواركلي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2006، ص220.

لقد حكمت المجتمعات على الجارية أن تكون جاهلة لا قدرة لها على التفكير، وعدّ أصحاب العلم الأمة الجارية رمزا للغباء، وإليها يُنسب كلّ تصرف أحمق[1] وعدتّ الجارية المثقفة مدعاة للعجب، ولهذا أعتقت بعض الفصيحات المجيدات من الجواري، واشترى الأثرياء من رجال الدولة وأصحاب المال، من كانت ثقافتها مقرونة بالجمال، كما أن الجواري العالمات المثقفات جعلت الرجال يقدروهن وينفقون من أجلهن المال الجليل، ويتفاخرون بامتلاكهن، احتراما لعلمهن لا شهوة في أجسادهن، وتعلمهن رفع عنهن نظرة الاحتقار التي كانت راسخة، ولعل هذا الأمر ما جعل الكثير من الجواري يسعين إلى تعليم أنفسهن لجلب انتباه الرجال إليهن، ولإثبات ذاتهن أمام أنفسهن وأمام المجتمع أيضا.[2]

الإسهام الثقافي للجواري:

حظيت الجواري في الأندلس بمساحة لا بأس بها من الحرية أتاحت لهن أن تتعلمن وتتثقفن، وتحسنن أوضاعهن، فقد شاركت الرجال في المجالس والمنتديات الأدبية، وهذا ما يؤكد بروز عدد لا بأس منهن في المجال الثقافي خاصة والعلمي عموما، وتفيدنا المصادر المعاصرة للفترة الوسيطة أن حضور الجواري وإسهاماتهم كان أقوى من حضور الحرائر، ويؤكد هذا احتفاظ المصادر بأسماء العديد منهن، ويمكن تصنيف إسهاماتهن إلى قسمين:

الإسهام المباشر:

كان للجواري دور معتبر في اغتناء الثقافة والفكر والأدب العربي، فمن خلال المصنفات التاريخية يتضح لنا الأثر البالغ الذي تركنه في هذا المجال، وذلك من خلال الذكر الكثير لجواري ساهمن في الازدهار والرقي الثقافي، ونذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر:

الجواري الكاتبات: ويبدأ ذكر الكاتبات بالغرب الإسلامي في الأندلس، وتحديدا أيام الخليفة الناصر، 277هـ-350هـ/891م- 961م، من أشهرهن نذكر: زمرد التي كانت كاتبة حاذقة[3] وكتمان المشهورة بالفهم والنبل[4] ولبنى كاتبة المستنصر، واشتهرت هذه

1 هاني أبو الرب، مرجع سابق، ص 269.

2 وفاء الدريسي، دور الجواري و الغلمان في الثقافة الاسلامية، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2016، ص375 .

3 ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د ت، ق8، ج2، ص485.

4 انفسه، ج2، ص488.

الجارية بالذكاء والفهم وحسن الخط، وكانت جامعة لعلوم الحساب والعروض[1] ونذكر في هذا المقام كذلك الجارية نظام التي كانت كاتبة بقصر هشام المؤيد بن الحكم، ومزن التي كانت كاتبة بارعة وقد استكتبها الناصر[2] دون أن ننسى قلم جارية عبد الرحمن بن الحكم، والتي جمعت الفنون وأنواع المعرفة، والكتابة الجيدة، وغيرهن كثير، ممن كانت لهن مكانة مميزة عند السلاطين والحكام، والحق أن هذا الأمر ليس بغريب على أهل الأندلس المقدرين للعلم وأهله.

الجواري المتأدبات: وهن اللائي تلقين ثقافة متعددة في اللغة، والادب والشعر والحساب والعروض، وكذا الحديث وغيرها من العلوم، أو ملكن مواهب تدل على علمهن وثقافتهن[3] وقد وردت في المصنفات التاريخية ذكر عدد معتبر منهن، نذكر بعضا منهن:

الجواري الشواعر: كل الجواري ممن سبق ذكرهن كن يقرضن الشعر ويحفظنه، بالإضافة اليهن نذكر اعتماد الرميكية، زوجة ومحظية المعتمد بن عباد[4] وغيرها.

فمن خلال هذه النماذج التي أوردناها والتي وردت عرضا في مصنفات اللغة والأدب والشعر وكتب النوادر والطرائف والملح، نعثر على أسماء اخرى تعطينا انطباعا أن الجواري لم تبرعن فقط في مجال الأدب فقط، إنما ذكرت المصادر انهن كنّ بارعات في شتى صنوف العلم، ومنهن نذكر آية التي زودت سيدها علي بن عبد الله الاشبيلي بشتى أنواع صنوف المعارف الطبية، التي أخذتها عن أمها والتي كانت قابلة عارفة بالحشائش والأدوية[5]، وأخرى مارست مهنة التمريض، غير أن بعض مصادر الحضارة الإسلامية قد احتفظت ببعضهن عرضا في مصنفات العلوم المختلفة، كمرجان زوج الناصر وأم الحكم المستنصر والتي كانت أديبة غير أن المؤرخين لم يذكروا لها مؤلفات[6] وغاية المنى التي كانت في بلاط المعتصم بن صمادح، وهي جارية متأدبة كانت من الشاعرات وقد اشتراها المعتصم بمئة ألف درهم، وكانت محظية عنده[7]، وريحانة التي بيعت بثلاثة آلاف دينار

---

1 ابن الأبار، التكملة، ج5، 296.

2 محمد المغراوي، نظرات من تاريخ المرأة الأندلسية، تقديم محمد مصطفى القباع، منشورات دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ع2، 2006، الرباط، ص38.

3 أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص43.

4 أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2001، ص349.

5 و ابن الأبار، مصدر سابق، ج5، ص2963

6 نفسه، ص297.

7 سهى بعيون، اسهام المرأة الأندلسية في النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2014، ص142.

لهذيل بن خلف بن لب ين رزين البربري وذلك لما امتازت به من جمال الصوت وجودة الخط، ومعرفتها بالنحو واللغة وصنوف العلم والطب والتشريح.[1]

الإسهام غير المباشر: ويتمثل في كونهن سببا غير مباشر في حركة الازدهار الثقافي في الغرب الاسلامي ويمكن ايجار أهم مظاهر هذه الإسهامات في:

1/ تربى على أيديهن أبناء الوزراء والسلاطين، فقد استقدموهن للبلاطات، للإشراف على تربية وتعليم وتثقيف أبنائهم وبناتهم، كما حدث مع العالم الفذ ابن حزم الأندلسي كما شهد على ذلك بنفسه، اما في الجهة المقابلة فقد برزت فاطمة الحاضنة التي عاشت في بلاط بني زيري الصنهاجيين بمدينة القيروان، وقد اختصّها الأمير المنصور الصنهاجي لحضانة وتنشأة ابنه باديس، لما رأى فيها من خصال التدبير والذكاء[2].

2/ قام العديد من الجواري بانشاء المساجد والجوامع، والتي كانت من أهم مراكز العلم والثقافة، ومنهن الجارية فخر التي بنت مسجدا بقرطبة، والجارية شعاع التي كان مسجدها بربض الرصافة من قرطبة[3] وليس هذا فحسب، بل إن بعض الجواري قمن بتوقيف الكتب والمصاحف على المساجد.[4]

3/ في كونهن أمهات بعض أهل العلم والثقافة، ومنهن ولادة بنت المستكفي، التي أحدثت تحولا جذريا في الحياة الثقافية، والتي كانت أمها أم ولد اسبانية[5] وكان الشاعر الفقيه ابن الياسمين صاحب الموشحات والمديح للمنصور وابنه الناصر أسود البشرة أمه جارية سوداء.[6]

4/ غالبا ما كانت الجواري مصدر الهام لأسيادهن، حيث جعلوهم يكتبون أشعارا يتغزلون فيها بالجواري، منهم المعتمد بن عباد الذي ألف ديوانا كاملا، يتحدث عن خصال جواريه وحبه لهن[7] ، وابن حمديس الذي حزن لوفاة إحدى جواريه وعبّر عن حزنه

---

1 ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، ج3تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1983، ص38.

2 الصحراوي قمعون، نساء رائدات في الحضارة العربية الاسلامية من القيروان الى بغداد، مطبعة ايريس، تونس، ط1، 2014، ص39.

3 ابن الأبار، مصدر سابق، ج5، 297.

4 الصحراوي قمعون، نفسه، ص40.

5 احمد خليل جمعة، مرجع سابق، ص411.

6 ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح ابراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، 2009، ص42.

7 المعتمد بن عباد، الديوان، تح حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، مصر، ط3، 2014، وجل الديوان.

الشديد من خلال شعره، وهذا الشاعر الموحدي الأمير أبو الربيع سليمان يعجب بإحدى جواريه.

5/ كانت الجواري سببا في انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى اوروبا النصرانية وهذا ما يؤكده ابن الكتاني المتطبب لأنه حصر مجلس أميرة ببلاد البشكنس وهي بنت الملك شانجة ابن غرسيه في بداية القرن ق5ه /11م وكان في ذلك المجلس مجموعة من الجواري الاندلسيات البارعات.[1]

خاتمة:

لم تكن الجواري خارج المنظومة الثقافية للمجتمع الإسلامي مشرقا ومغربا بل على العكس تماما، فإذا ما تحدثنا عن مساهمة الجواري في العطاء الثقافي في الغرب الإسلامي خاصة، نجد ان الحضور الأقوى في هذا الحقل كان من نصيب هذه الفئة المستضعفة ان صح التعبير، فقد كانت لهن الريادة والسبق، وهذا ما أكدته المصادر التي اتفقت على ذلك، ودعمت قولها بذكر عدد ليس بالقليل منهن، كل واحدة ذكرت في مجال تفوقها وبراعتها، وهذا التفوق لم يكن من فراغ، إذ تضافرت العديد من الأسباب والعوامل التي مكّنت الجواري من تغيير مصيرهن وواقعهن، فبعد أن كنّ مجرد مملوكات تمارس عليهن كل صلاحيات السيد، أصبحن مؤثرات غيرن حال المجتمع وأثرن في ثقافته.

فبعد أن كانت بعض المناصب حكرا على الرجال لحساسيتها وخطورتها تمكنت بعض الجواري لما تميزن به من خصائل علمية وادبية ان يشغلنها ويضفن اليها، ومنها منصب الكاتبة لدى السلطان خاصة عند الأمويين في الأندلس، وكانت منهن الأديبة المجيدة والخطاطة البارعة والشاعرة المرهفة كما اشتهرت من بينهن عالمات جليلات فنجد فيهن الطبيبة والممرضة والحسابية والفيلسوفة وغيرها كما اشتغلن بتربية وتأديب أولاد الاعيان وليس هذا بالأمر الهيّن لما فيه من تأثير على جيل بأكمله، ويبقى هذا الموضوع يحتاج لمزيد من البحث والاستزادة.

قائمة الصادر والمراجع:

القرآن الكريم .

ابن الأبار محمد بن عبد الله بن ابي بكر، التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995.

أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2001.

ابن الأخوة القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تح محمد محمود، صديق احمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.

1 ابن بسام، م س، ج5، ص318.

أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر، حققه وضبطه علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1953.
انخل بلانثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، 2013.
التيفاشي أبي أحمد بن يوسف، متعة الإسماع في علم السماع، تح رشيد السلامي، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، 2019.
الجاحظ، المحاسن والأضداد، تح فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، 1969.
ابن حزم أبو محمد بن علي بن سعيد الأندلسي ت456ه/1063م، طوق الحمامة في الإلفة والآلاف، ضبط نصّه وحرر هوامشه الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط1، 1405ه، 1985م.
جهاد كاظم العكيلي، أفراح ذياب صالح، الجواري في التاريخ ودورها في الحياة الأدبية والثقافية، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، العراق، ع37، 2018م.
حسن يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الافصاح في فقه اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992.
الحمصي عمر عبد الرحمن، الموسيقى العربية تاريخها وعلومها، فنونها وأنواعها، مكتبة الرواد، .1994
زينب محمد حامد، اوضاع العبيد المعتقين في العصر الوسيط بالغرب الإسلامي، مجلة البحوث التاريخية، مج03، ع01، 2019.
السرقسطي أبو الطاهر محمد بن يوسف، المقامات اللزومية، تح حسن الواركلي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2006.
ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح ابراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، 2009.
الصحراوي قمعون، نساء رائدات في الحضارة العربية الاسلامية من القيروان الى بغداد، مطبعة ايريس، تونس، ط1، 2014.
لويس معلوف، المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19.
ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د ت .
عبد الله التجاني، متعة العروس ومتعة النفوس، تح جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، 1992.
ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، ج3تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1983.
محمد المغراوي، نظرات من تاريخ المرأة الأندلسية، تقديم محمد مصطفى القباع، منشورات دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ع2، 2006، الرباط.
ابن منظور، لسان العرب، المطبعة الأميرية، مصر، بولاق، 1989.
ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983.
ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ت.
سلمى سليمان علي، المرأة في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، 400-484هـ، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2006.
سليمان حريتاني، الجواري والقيان وظاهرة انتشار أندية ومنازل المقينين في المجتمع العربي، دار الحصاد، دمشق، 1997.
سولاف فيض الله، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ط1، 2013.
المقري و أحمد بن محمد التلمساني و، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت.
المعتمد بن عباد، الديوان، تح حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، مصر، ط1، 2014.
هاني أبو الربّ، زرياب وأثره في الحياة الاجتماعية والفنية في الأندلس، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع15، شباط 2009، فلسطين.
وفاء الدريسي، دور الجواري و الغلمان في الثقافة الاسلامية، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2016.

المراجع الأجنبية:

Michel abitbol ,histoire du maroc , editionpinin , 2009.